العمارة الإسلامية والهوية الثقافية وعلاقتهما بالتنمية المستدامة

د. سعد صالح عامر الحاج
دكتوراه انثروبولوجيا ثقافية
drsaadalhaj@gmail.com

2018-2019 م

الملخص:

خلصت الدراسة إلى أمرين مهمين:

الأول: إن العمارة الإسلامية تمثل رمز من رموز الحضارة الإسلامية وهويتها، وإبداع المسلمين وحسهم الجمالي، وجاءت نتيجة لحاجاتهم البيئية والاجتماعية، ومطابقة لقيم الدين الإسلامي، وتقدير إنسانية الإنسان وحقوقه. والتنمية المستدامة هي قيام الأجيال الحالية من البشر بالعمل على توفير حاجاتها في الحاضر دون التغافل عن المستقبل، بالحرص عن عدم استنزاف الثروات الطبيعية، وادخار نصيب أكبر منها للغد، والمحافظة على البيئة.

الثاني: أثبت الدراسة بوجود علاقة بين العمارة الإسلامية كهوية وبين التنمية المستدامة من خلال الجوانب التالية:

1- الجانب البيئي. 2- الجانب البشري. 3- الجانب الثقافي. 4 - الحفاظ المعماري.

Summary:

The study concluded two important thing:

The first: is that Islamic architecture represents a symbol of Islamic civilization and its identity, the creativity of Muslims and their aesthetic sense, and it is the result of their environmental and social needs, conforming to the values of the Islamic religion, and the appreciation of human humanity and rights. Sustainable development is the fact that current generations of human beings are working to provide for their needs in the present without losing sight of the future, ensuring that natural resources are not depleted, saving more for tomorrow and preserving the environment.

Second: The study proved that there is a relationship between Islamic architecture as an identity and sustainable development through the following aspects:

1-The environmental aspect. 2-The human side. 3-Cultural aspect. 4-Architectural preservation.

المقدمة:

يُعدَ علماء الانثروبولوجيا العمارة من الفنون البصرية، وهي عنصر من عناصر الثقافة المادية التي تتميز بالمسحة الجمالية، التي تثير عند الإنسان الانتباه والاهتمام والسعادة والبهجة.

تتردد العبارة التي تقول إن العمارة أم الفنون، ولكنها في واقع الأمر لم تعد كذلك بعد أن فقدت العمارة المعاصرة مقوماتها الحضارية. وإذا كانت العمارة على مر العصور تعتبر المرآة التي تنعكس على صفحاتها الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمعات في كل عصر، وإن كانت في الوقت الحاضر فقدت مقوماتها الحضارية فهي بذلك تعبر عن فقدان المجتمع لجانب من مقوماتها الثقافية.

فالعمارة المعاصرة لم تعد جزءاً من الكيان الثقافي للمجتمع بل قوالب من الخرسانة والطوب والبياض تؤدي وظيفتها المادية دون مراعاة للجوانب الحضارية، فالإنسان المعاصر لم تعد تهمه العمارة بقدر ما تهمه الأغنية أو الرقصة أو الصورة أو القطعة الموسيقية، من هنا كان اهتمام وسائل الإعلام بهذه الجوانب التي أصبحت المحرك الأول للحركات الثقافية في الدول النامية، وبقيت العمارة المعاصرة بعد ذلك بعيدة عن الصورة، لا يهتم بها أبناؤها ولا يرعاها أهلها.

فالعمارة عند المثقفين حضارة تشيَد، وعند العلماء تاريخ يكتب، وعند الحكماء كتاب يقرأ، وعند الحكام روح تبنى، وعند المتخصصين إنجاز وابتكار. ويقول المتخلفون إن العمارة للمعماريين وهى بذلك لا تحتاج إلى عون أو معين. بينما يرى المتقدمون أن العمارة لكل المجتمع والمواطنين، فهي الأولى بالرعاية والعناية لأنها مقياس التقدم، ومعيار الأصالة والحضارة.[1]

وللعمارة الإسلامية تراث عظيم ظفرت به معظم البلدان التي حكمها المسلمون منذ فجر الإسلام حتى اليوم، حين امتدت أطراف الدولة الإسلامية من المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي ومن جنوب ايطاليا حتى بلاد اليمن. ويحق لنا أن نلم بما بقى من آثارها وأن نحافظ على هذا التراث.[2]

إن التنمية والثقافة والإنسان والعمارة، مفاهيم متكاملة، وهي المقومات الآمنة الراقية الأساسية، لصناعة الحياة المتطورة، التي تقوم على وسائل وأهداف، لصناعة الرقي الإنساني المتمثل في الحضارة والتنمية.[3]

أولا- التعريف بموضوع البحث: لجأ الإنسان في كل المجتمعات البشرية بعد استقراره في المكان إلى تسخير معطيات المكان في تحقيق متطلبات العيش، بدءاً بالتفاعل المتنامي بين الهوية الثقافية والهوية المعمارية من خلال مسارات ومستويات وأصبحت جزءاً حميماً مع الأماكن المختلفة.

ولا تقتصر علاقات التفاعل بين الإنسان والمكان على تأثير الإنسان على المكان فحسب بل إن المكان يحفر في الإنسان خصائصه وملامحه، فالعلاقة بين الإنسان والمكان هي علاقة تفاعلية قائمة على أساس قانون الفعل ورد الفعل.

وعلى هذا الأساس فإن ما يقوم به الإنسان في المكان من نشاطات ثقافية وعمرانية هو ما يشبه تفاعل الهوية الثقافية مع الهوية المعمارية وارتباطهما مع المكان، وبقدر ما يتنامي هذا التفاعل يتنامي معه شعور الارتباط بالمكان متمثلاً في عدد من السلوكيات والقيم والاتجاهات المتوالدة عبر التاريخ الإنساني مثل المحبة، الاعتزاز، الولاء، الانتماء، البناء، وهي في محصلتها الأخيرة صورة من صور هوية الإنسان، ولهذا فإن مواصلة الإنسان لعمليات البناء المادي والفكري وخلق صورة مشرقة للمكان دلالة على إيجابية التفاعل بينه وبين المكان وبالأصح بينه وبين هويته.[4]

ثانياً- أهمية البحث ومبررات اختياره: يمكن تلخيص أهمية البحث ومبررات اختياره في النقاط التالية:

1- يستمد البحث أهميته من تناوله للجانب الثقافي لموضوع المؤتمر (العمارة الإسلامية والهوية الثقافية وعلاقتهما بالتنمية المستدامة).

2- تنبع أهمية البحث من أهمية الاهتمام العالمي بالتراث المادي والثقافي والمحافظة عليه في عصر العولمة.

3- تأتي أهمية البحث من أهمية المناطق المادية المحيطة بالفرد في تشكيل شخصيته وهويته.

4- وجود اتجاهات من الدول الكبرى نحو تدمير فنون الثقافة العربية، وما يرتبط بها من جذور، وبخاصة الفنون البصرية. وسيادة ظاهرة العولمة الثقافية والجمالية وظهور أبعادها المستترة لإذابة الهوية الثقافية.

5- فقد ملامح الرموز، والدلالات الثقافية لتدني البحث العلمي في مجال الفنون والعمارة الإسلامية.

6- بعد الثقافة والفنون والجماليات عن خطط التنمية الوطنية والتنمية الشاملة والمستدامة.[5]

ثالثاً- مفاهيم البحث:

1- **العمارة الإسلامية:** العمارة الإسلامية هي (الخصائص البنائية التي استعملها المسلمون لتكون هوية لهم، وقد نشأت تلك العمارة بفضل المسلمين وذلك في المناطق التي وصلها).[6]

والعمارة هي (وعاء الحضارة ، وهي تمثل بالخلاصة الهُوية الثقافية والمستوى الإبداعي والجمالي للإنسان).[7]

2- **الهوية الثقافية:** (المحددات والأنماط الخاصة بشخصية مجتمع ما بحيث يختلف بها عن أي مجتمع).[8]

3- التنمية المستدامة: تعرف اللجنة العالمية للتنمية المستدامة (1987) بأنها: (تلبية احتياجات الحاضر دون أن تؤدي إلى تدمير قدرة الأجيال المقبلة على تلبية احتياجاتها الخاصة).[9]

رابعا. أهداف البحث: يهدف البحث إلى التالي:

1- التعرف على العلاقة بين العلوم وأهميتها في خدمة العلم، وقضايا المجتمع.

2- الكشف عن الارتباط بين العمارة والثقافة.

3- التعرف على العلاقة بين العمارة الإسلامية والهوية الثقافية والتنمية المستدامة.

خامسا. تساؤلات البحث: يهدف البحث للإجابة عن التساؤل التالي: ما العلاقة بين العمارة الإسلامية والهوية الثقافية والتنمية المستدامة؟.

سادساً- منهج البحث: استعان الباحث بالمنهج التاريخي، فالمنهج التاريخي يستخدم للحصول على أنواع من المعرفة عن طريق الماضي بقصد دراسة وتحليل بعض المشكلات الإنسانية والعمليات الاجتماعية الحاضرة، فكثيراً ما يصعب علينا فهم حاضر الشيء دون الرجوع إلى ماضيه فالحياة المعاصرة قائمة على الحياة السابقة وهي امتداد لها.

كما استعان الباحث بالمنهج الوصفي، الذي يستخدم لدراسة حقائق راهنة متعلقة بظاهرة أو موقف أو فرد أو أحداث أو أوضاع معينة بهدف اكتشاف حقائق جديدة أو التحقق من صحة حقائق قديمة وآثارها، والعلاقات التي تتصل بها وتفسيرها وكشف الجوانب التي تحكمها.[10]

سابعاً- المدخل النظري للبحث:1- العمارة الإسلامية: عبر الإنسان البدائي الذي كان يعيش في الكهوف عن مشاعره الدينية، بنقوش يخطها على الحجارة وجدران الكهوف، أما الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلامية فقد تميزت فنون حضاراتها بانعكاس هذه المعتقدات الدينية على هذه الفنون.

عند البحث في الفنون الإسلامية من عمارة وفنون زخرفية وغيرها يتضح لنا أن هناك روحاً واحدةً تسري في مختلف هذه الفنون وتجمع بينها، وأن هناك خصائص مميزة واحدة تتميز بها هذه الفنون المتعددة وتشكل وحدتها. وهذه الروح وهذه الخصائص المميزة ما هي إلا روح الإسلام ومفاهيمه ومعطياته. (وهو ما نسميه بالهوية الثقافية الإسلامية).

ووحدة الفن الإسلامي تكونت علمياً نتيجة لتأثير مفاهيم الدين الإسلامي على فنون الشعوب العديدة التي دخلت الإسلام وكونت العالم الإسلامي، وساعدت على ذلك تلك الوحدة السياسية التي كان العالم الإسلامي يعيش في كنفها طوال العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي وشطر كبير من العصر العباسي والعصر العثماني.

وتعتبر المساجد رمزاً للفكر الإسلامي، ببساطتها، ونظافتها والآيات القرآنية التي تكتب على جدرانها بالخط العربي المميز وفنون الزخرفة الإسلامية على منابرها ومحاريبها وغير ذلك من الأعمدة والأقواس والقباب والمآذن بأشكالها، وعناصر الزخرفة النباتية والحيوانية على أبوابها وفتحات النوافذ التي تشكل علامة جمالية مع الجدران والزجاج الملون الذي يستخدم في هذا المجال، والرخام الجص، والفسيفساء وبلاط القيشاني في أعمدتها وجدرانها وأرضيتها، كل ذلك أضفى على المساجد الجلال والروعة والجمال.[11]

(جانب من العمارة الإسلامية)[12]

ويعتبر فن العمارة من الفنون التي اصطبغت بالطابع الإسلامي، وميزت الحضارة الإسلامية عن غيرها، وقد نبغ المهندس المسلم في أعمال الهندسة المعمارية؛ حيث وضع الرسوم والتفصيلات الدقيقة والنماذج المجسّمة اللازمة للتنفيذ، إلى جانب المقايسات الابتدائية، ولا شَكَّ أن كل هذا قد احتاج منه إلى التعمُّق في علوم الهندسة والرياضة والميكانيكا، تلك التي برع فيها المسلمون. وللعمارة الإسلامية شخصيتها وطابعها الخاصُّ المميِّز، والذي تتبيَّنُه العينُ مباشرة، سواءٌ أكان ذلك نتيجة للتصميم الإجمالي، أم العناصر المعمارية المميِّزة، أم الزخارف المستعمَلَة.

إسهامات المسلمين في تقنيات العمارة الإسلامية:

1- **تقنية الأعمدة:** كانت الأعمدة من أهم الأشياء التي تناولها الفن الإسلامي، وقد اتخذت تيجانًا وعقودًا مدبَّبَة، وروابط خشبية، حتى إنه ظهر ما يُعْرَفُ بعلم عقود الأبنية، وقد أصبحت أقواس حدوة الفرس تدلُّ على الفنِّ المعماري الإسلامي، وإن وُجِدَتِ الأقواس قبلاً إلاَّ أنه قد تَغَيَّر شكلها على يد المسلمين.

2- **تقنية القباب:** برع المسلمون في تشييد القباب الضخمة، ونجحوا في حساباتها المعقدة، التي تقوم علي طرق تحليل الإنشاءات القشرية (SHELLS)، وهذه الإنشاءات المعقدة والمتطوِّرة من القباب –مثل: قبة الصخرة في بيت المقدس وقباب مساجد الأستانة والقاهرة والأندلس– تعتمد اعتمادًا كُلِّيًّا على الرياضيات المعَقَّدَة، وكانت هذه القباب تعطي شكلاً جماليًّا رائعًا للمساجد.[13]

(قبة الصخرة المسجد الأقصى)[14]

3- **تقنية المقرنصات:** كذلك كانت المقرنصات من أبرز خصائص الفنِّ المعماري الإسلامي، وتعني الأجزاء المتدلِّيَة من السقف، والمقرنصات منها داخلية وخارجية: انتشرت الداخلية في المحاريب والسقوف، وكانت الخارجية في صحون المآذن وأبواب القصور والشرفات.

4- **تقنية المشربيات:** كما كان من مظاهر الفنِّ المعماري الإسلامي الظاهرة بناء مشربيات البيوت مخرمةً أو مزخرفة، وتسمَّى قمرية إذا كانت مستديرة، أو شمسية إذا كانت غير مستديرة، أو حتى شيشًا، وهي من خشب خُرِطَ كستائر للنوافذ، من فوائدها أنها تُخَفِّفُ حِدَّة الضوء، وتُمَكِّنُ النساء من مشاهدة مَنْ بالخارج دون أن يراهنَّ أَحَدٌ، وقد أصبح ذلك طابع البيوت الإسلامية.

5- **تقنية الصوتيات المعمارية:** أفاد المسلمون من تطبيقات علم الصوتيات (Acoustics) –الذي يَدِينُ بنشأته وإرساء أصوله المنهجية السليمة للمسلمين– في تطوير تقنية الهندسة الصوتية، واستخدامها فيما يُعْرَفُ الآن باسم (تقنية الصوتيات المعمارية)، فقد عرفوا أن الصوت ينعكس عن السطوح المقعَّرة، ويتجمَّع في بؤرة محدَّدة، شأنه في ذلك شأن الضوء الذي ينعكس عن سطح مرآة مقعرة، وقد استخدم التقنيون المسلمون خاصية تركيز الصوت (Focusing of sound) في أغراض البناء والعمارة؛ وخاصة في المساجد الجامعة الكبيرة؛ لنقل وتقوية صوت الخطيب والإمام في أيام الجمعة والأعياد.

6- تقنية العقود: تؤكِّد المراجع والدراسات التاريخية في مجال العمارة الإسلامية أن أوَّل ما ظهر من عناصر وأشكال التقنيات الهندسية المعمارية عند المسلمين هو (العقد المنفوخ) الذي اسْتُخْدِمَ في المسجد الأموي بدمشق عام (87هـ/ 706م)، وعُمِّمَ استخدامه بعد ذلك؛ بحيث أصبح عنصرًا مميِّزًا للعمارة الإسلامية، وخاصَّة في بلاد المغرب والأندلس، ثم اقتبسه البناة الأوربيون، وأكثروا من استخدامه في بناء كنائسهم وأديرتهم.

7- تقنية السدود والقناطر: ومن الجدير بالذكر أن جماليات العمارة الهندسية الإسلامية امتدَّت لتشمل القناطر المائية والجسور والقنوات، وكانت تقنياتها رائعة التخطيط والتنفيذ؛ تعطي الماء المارَّ في القنوات والأنهار بُعْدًا جماليًّا إضافيًّا عند المشاهدة، وهذا يعني أن العمارة الإسلامية وتقنياتها الهندسية والجمالية كانت مظاهر طبيعية لعصور الازدهار في حضارة الإسلام.

8- تقنية القلاع: كانت القلاع العربية من أهم الإضافات التي أخذها الغرب، كما تشهد بذلك زيجريد هونكه، فلم يكن الغرب يعرف غير التقنية الدائرية في تصميم القلعة، ومنذ أن دخل المسلمون الأندلس، ثم صقلية، ثم حدث الاحتكاك مع المسلمين في الحروب الصليبية، تغيرت النماذج المتبعة في البناء إلى النموذج العربي، الذي يغلب عليه التصميم المربع، المزود في أركانه بأبراج المراقبة والدفاع، وأحيانًا توجد الأبراج في الأضلاع أيضًا.[15]

والعمارة الإسلامية هي أحد مظاهر الحضارة التي ميزت التاريخ الإسلامي ولا تزال هذه العمارة إلى الآن شاهدة على عظمة هذه الحضارة وإنسانيتها، ولم تقتصر تلك العمارة على المساجد والمنازل والقصور فقط، بل امتدت لتشمل المدارس والأسبلة وحتى القلاع والحصون والقناطر ما يدل على اهتمام الحضارة الإسلامية بمناحي النشاط الاقتصادي والاجتماعي كافة وأيضا الحربي، وجمعت العمارة الإسلامية بين مختلف أشكال الفنون الأخرى للدرجة التي اعتبر اليونانيون معها أن العمارة الإسلامية هي أم الفنون. وتعد العمارة من أهم مظاهر الحضارة، فالعمارة هي المرآة التي تعكس آمال الشعوب وأمانيها وقدراتها العلمية وذوقها الرفيع، بل وفلسفتها أيضا.[16]

2- الهوية الثقافية:

1- تعريف الهوية الثقافية: يتحدد المعنى العام لمفهوم الهُوِيَة من خلال الإجابة على سؤال: مَن أنا؟ ومَن نحن؟ ومَن هم؟ إن مفهوم الهُوِيَة – بهذا المعني يحدد جدلية الانتماء لـ (الأنا) في مقابل (الأخر). ويشير مفهوم الهوية إلى (جملة الخصائص والسمات الجوهرية التي تميز حقيقة الشيء أو الشخص وتجعله مختلفاً على غيره). وهي بذلك تعني (مخالفة غيرك)، كما ترتبط بإدراك الفرد لذاته.[17]

لكن هذا المفهوم لم يتوقف عند (الذات الفردية) بل اتسع مداه داخل العلوم الاجتماعية لكي يشمل الهوُيَة الاجتماعية، والهوُيَة الثقافية، والهوُيَة العرقية السلالية.، وهي مصطلحات تشير إلى توحد الذات مع وضع اجتماعي معين، أو مع تراث ثقافي معين، أو مع جماعة سلالية.[18]

تعرف الهوية بأنها (الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الأغبار)، والامتياز هنا بمعنى الخصوصية والتفرد والاختلاف لا بمعنى التفاضل والتميز. وتعرف بأنها (الذاتية والخصوصية، وهي جميع القيم والمثل والمبادئ التي تشكل الأساس الراسخ للشخصية الفردية أو الجماعية). والهوية الثقافية يمكن أن توصف بأنها النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات والأفعال الأصيلة للفرد وللجماعة. والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع، مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة، وميزاتها الجماعية التي تحددت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموحات الغد. [19]

يعرف قاموس التراث الأمريكي الهوية قائلاً: (الهوية هي الجوانب المجمعة من الخصائص التي من خلالها يمكن التعرف على الشيء). وانه المعنى المرادف لكلمة (هو) هو (معنى جنباً إلى جنب، والتي تطلق على الاسم الذي اشتق منه مثال الإنسان من الإنسانية). ويعرف (ابيل) الهوية المعمارية بأنها: (امتلاك العمارة جوهراً خاصاً لتمثل التناغم المثالي المتواصل بين الشكل والثقافة والمكان والمناخ).

والهوية البصرية: هي: (الهوية التي تعتمد على إدراك الأشخاص لمبنى أو عدة مبان متميزة عن غيرها في الشكل ويحتوي على نموذج معين ويعطي له القيمة، وقد تعبر عن زمن ما متميز). والهوية الثقافية تحقق جانبين:

1- إن الفرد يتعرف على نفسه من خلال إدراكه لهذه الهوية، وهذا الجانب يكشف عن أهمية سيكولوجية.

2- إن الفرد من خلالها يعرف نفسه للآخرين مستخدماً الصورة التي يدركها عن نفسه أو التي يرغب في أن يقدمها للآخرين، ويتعرف الآخرين عليه من خلال هذه الصورة.[20]

2- الهوية الثقافية والعولمة: إن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة الوطنية، والاستقلال الوطني، والإرادة الوطنية والثقافة الوطنية، تعني العولمة مزيداً من تبعية الأطراف للمركز، فتعم قيم الاستهلاك والمتعة بالحياة، ولا تنظر الأمم إلى مشاريع وطنية وخطط إستراتيجية بعيدة المدى، فذلك من اختصاص المركز،وما على الأطراف إلا ركوب القطار الذي يحدد المركز اتجاهه وسرعته ونوع حمولته وقائده ومحطاته التي يتوقف فيها، أو التي يتجاوزها. وبعد أن انحسر الوطن في قلوب المواطنين، ويسود الشك والنسبية كما ساد في المركز، وتعم العدمية، وتتقلب القيم ويسري الخواء في الروح وتنهار الأمة، وفي هذه الأثناء يصبح

كل من يدافع عن الخصوصية والأصالة والهوية الثقافية والاستقلال الحضاري رجعياً، إظلامياً، أصولياً، إرهابياً، متخلفاً.[21]

وإذا كان من هدف العولمة هو إزالة الحدود الفاصلة بين المجتمعات والقضاء على فكرة المحلية أو الإقليمية، فإنه من الطبيعي أن يكون هدفها – على الصعيد الثقافي – هو محو الهوية الثقافية لمجتمعات الأطراف وطمسها.

فالهوية الثقافية لأي مجتمع إنما تتمثل أساساً في ذلك الشعور بالانتماء والولاء لنسق قيمي معين، ومن ثم فهي التي ترسم حدود التميز الثقافي بين الأخر والأخر.

ويتواكب محو الهوية الثقافية مع الترويج لفكرة الثقافة العالمية على اعتبار أن ثمة مشتركاً إنسانياً عاماً بين البشر على المستوى العالمي، وإن رقعة ذلك المشترك الثقافي آخذة في الاتساع بعامل تزايد الاحتكاك والتفاعل والاتصال الإنساني على المستوى العالمي وهو ما ينبئ بقرب التوصل إلى ثقافة عالمية موحدة.

وهكذا يتضح أن سياسات العولمة الثقافية تستهدف أولاً سلب الوعي من خلال تحجيم الهويات الثقافية المحلية، ثم السيطرة على الإدراك بوسائله وآلياته وفنونه تمهيداً لغرس المحتوى الثقافي الذي يستهدف الداعون إلى العولمة بثه أو ترويجه. وتتمثل أهم الجوانب السلبية للعولمة فيما يلي:

1- سحق الهوية الوطنية المحلية، وإعادة صهرها وتشكيلها في إطار هوية وشخصية عالمية، أي الانتقال بها من الخصوصية الخاصة إلى العمومية العامة، بحيث يفقد الفرد مرجعيته ويتخلى عن انتمائه وولائه ويتنصل من جذوره.

2- سحق الثقافة والحضارة المحلية والوطنية وإيجاد حالة اغتراب ما بين الإنسان وتاريخه الوطني، والموروثات الثقافية والحضارية التي أنتجتها حضارة الآباء والأجداد، أي فصل الجذع عن الجذور الممتدة وفصل السطح عن الأعماق، وإيجاد شكل من أشكال الثقافة العالمية التي صنعها البشر جميعاً وليس خاصة بأشخاص بذاتهم أو بمناطق جغرافية بذاتها.[22] هذا ومن الأمور المحزنة أننا نجد أنفسنا في العالم العربي والإسلامي؛ في ضياع حيث فقدنا الجذور والأصول إذ نستورد أكثر مما نصدر – ليس في السلع والخدمات فقط – بل في الأفكار والقيم، حتى تلك التي كانت أصلية عندنا.[23]

3- التنمية المستدامة:1- مفهوم التنمية المستدامة: ركز مفهوم التنمية منذ الخمسينات من هذا القرن على أنها زيادة في الاستثمار تؤدي إلى تطور الهيكل الاقتصادي، ومن ثم إلى زيادة متوسط الدخل الحقيقي للفرد، ثم تطورت النظرة بعد ذلك إلى التنمية لتأخذ في اعتبارها مسألة توزيع الدخل والجوانب الاجتماعية الأخرى، أي

الاهتمام بالتنمية البشرية إلى جانب تنمية رأس المال، ثم أصبح الاهتمام ينصب بشكل رئيس على نوعية الإنسان ونوعية الحياة، والمحافظ على البيئة، أكثر منه على إنتاج السلع والخدمات.

ويركز مفهوم الاستدامة في التنمية على أهمية البيئة وأحقية الأجيال في الاستفادة من الموارد الطبيعية وعلى هذا الأساس يمكن تلخيص مبادئ الاستدامة في التنمية فيما يلي: الأخذ بعين الاعتبار التكلفة الاجتماعية والبيئية التي تنجم عن النشاطات الاقتصادية المختلفة للإنسان مثل الآثار السلبية للعملية الصناعية على الأنهار أو البحار، وتحقيق نمو اقتصادي يعتمد على حماية البيئة ويحتاج لوجود موارد، والاستخدام العقلاني للموارد، وتشكيل الوعي البيئي، والموارد الطبيعية تشكل رأسمال بيئي لا يجوز استهلاكه واستنزافه بالكامل في أي نشاط اقتصادي لأن ذلك قد يؤدي إلى الإفلاس البيئي.[24]

وتعرف التنمية المستدامة: بأنها(قيام الأجيال الحالية من البشر بالعمل على توفير حاجاتها في الحاضر دون التغافل عن المستقبل، بالحرص عن عدم استنزاف الثروات الطبيعية، وادخار نصيب أكبر منها للغد، مع بدل أقصى جهد على عدم تلويث البيئة بدرجة تجعل من المستحيل على أجيال المستقبل أن تباشر الحياة بالمستوى الذي نعمت به الأجيال السابقة). والهدف من التنمية المستدامة هو التخفيف من وطأة الفقر على فقراء العالم اليوم من خلال تقديم حياة آمنة ومستديمة مع الحد من تلاشي الموارد الطبيعية، وتدهور البيئة، والخلل الثقافي، والاستقرار الاجتماعي، والترشيد والقصد في توظيف الموارد المتجددة، بصورة لا تؤدي إلى تلاشيها أو تدهورها أو تنقص من فائدة تجنيها أجيال المستقبل. كما أنها تتضمن الحكمة في استخدام الموارد المحددة التي تتلاشى بالتدريج دون أن تتجدد بل والمعرضة إلى الفناء؛ بحيث لا تحرم الأجيال القادمة من الاستفادة مما بقي منها.[25]

2- **أبعاد التنمية المستدامة:** لأهمية الأبعاد البشرية والبيئية في عملية التنمية ازداد الاهتمام بالتنمية المستدامة التي تهدف إلى إيجاد توازن بين النظام الاقتصادي والبيئي بدون استنزاف الموارد الطبيعية ومراعاة الأمن البيئي. ومن هنا اكتسبت الأبعاد البيئية والبشرية اهتماماً أدى إلى الاهتمام بالتنمية المستدامة وانعكاسها على التخطيط في الدول النامية بشكل خاص:

1- **البعد البيئي:** استدعت أحداث عقدي السبعينات والثمانيات اهتماماً أكبر بأمور البيئة والتوازنات البيئية ووقف التدهور البيئي، فقد أدت الرغبة في زيادة معدلات النمو الاقتصادي والاهتمام بقطاع الصناعة وبالتكنولوجيا (والبناء) إلى تلوث واضح للبيئة، ومن هنا أصدرت (اللجنة الدولية للتنمية والبيئة) تقريراً يأخذ بمفهوم (التنمية المستدامة) باعتبارها التنمية التي تلبي حاجات الجيل الحالي دون استنزاف حاجات الأجيال القادمة، وقد رأى بعض الاقتصاديين تحديد هذا المفهوم بحديث ينصب على الجوانب المادية من خلال استخدام

المواد الطبيعية المتجددة بطريقة لا تؤدي إلى انتهائها أو تدهورها أو تناقص جدواها بالنسبة للأجيال القادمة، وذلك مع المحافظة على رصيد ثابت بطريقة فعالة من الموارد الطبيعية مثل التربة والمياه الجوفية، وذهب اقتصاديون آخرون إلى أن القيم المستدامة تعني أن السياسات الاقتصادية الحالية للمجتمع يجب ألا تقلل من الدخل الحقيقي فيه وألا تضر بإمكانيات المحافظة على مستويات المعيشة للمجتمع في المستقبل.

وترتكز فلسفة التنمية المستدامة على أن الاهتمام بالبيئة يُعدَ أساساً للتنمية الاقتصادية، حيث إن استنزاف الموارد البيئية الطبيعية – التي تعد أساساً لأي نشاط زراعي أو صناعي – سيكون له آثار ضارة على التنمية والاقتصاد بشكل عام، ولذا يتعين الموازنة بين النظام الاقتصادي والنظام البيئي بدون استنزاف الموارد الطبيعية من جهة ومراعاة الأمن البيئي من جهة أخرى خاصة وأن الدورات البيئية تعد طويلة مقارنة بالدورات الاقتصادية، وثمة حاجة إلى دمج اعتبارات التنمية والبيئة في عملية صنع القرار ممَا يستدعي تغير الاتجاهات والأهداف وبعض الإجراءات التنظيمية على جميع المستويات.

2- **البعد البشري**: لقد أصبح معنى التنمية المستدامة إعادة توجيه الموارد لضمان الوفاء بالاحتياجات البشرية الأساسية مثل تعلم القراءة والكتابة، وتوفير الرعاية الصحية الأولية والمياه النظيفة، وتحسين الرفاهية الاجتماعية والاستثمار في رأس المال البشري من خلال تدريب العاملين والمتخصصين الذين تدعوا إليهم الحاجة لاستمرار التنمية.

والتنمية البشرية تعني توسيع اختيارات الأفراد من خلال توسيع نطاق قدراتهم البشرية إلى أقصى حد ممكن وتوظيف تلك القدرات أفضل توظيف في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وتتراوح الخيارات الأساسية بين العيش مدة أطول وبصحة جيدة واكتساب خبرات ومهارات من خلال المعرفة وإشباع الحاجات الأساسية، مع توفر فرص تعليم. ومن هنا فإن الحاجة ماسة إلى ربط قضايا البيئة بالتنمية بشكل محدد ومستمر حيث ينعكس الربط بين التنمية والبشرية والاستدامة بوضوح على التخطيط، حيث لا وجود لتنمية مستدامة بدون التنمية البشرية. والأمر يتطلب المحافظة على الموارد الطبيعية من خلال عدم استنزافها وألا يكون تمويل استهلاك الأجيال الحالية بديون اقتصادية تقطع من مدخرات الأجيال القادمة.[26]

إن جوهر التنمية البشرية هو توسيع دائرة التعليم، وإعادة تكوين نوعي للبشر والمؤسسات القائمة في المجتمع، والتغلب على التهديدات البيئية.[27]

3- **البعد الثقافي**: تمثل الثقافة القاطرة التي ستقود تحقيق التنمية، وتعمل على استدامتها، وتجعل لهذه التنمية معنىً وجوهراً يتأسس على الهوية الوطنية، ويعمل على تعزيزها؛ ومن هنا تأتي أهمية إعلان العقد العربي للتنمية الثقافية (2005-2014) الذي جاء على رأس أولوية (وَضع الثقافة في محور عملية التنمية في الوطن العربي

) (وتأكيد الهوية الثقافية وتعزيزها والحفاظ عليها). ولا نبالغ أذا قلنا: إن تحقيق التنمية الثقافية يُفضي بالضرورة إلى تعزيز الهوية الوطنية للمجتمع والمحافظة عليها.

ولقد ظهرت الحاجة إلى ضرورة الربط العضوي بين الثقافة والتنمية بصورة واضحة منذ أواخر تسعينيات القرن العشرين، حيث أعلنت الأمم المتحدة عقد التنمية الثقافية (1988–1997) الـذي يهـدف إلتى وضع الثقافة والتنمية (جنباً إلى جنب) وضرورة الحاجة إلى التنمية الملائمة ثقافياً، وتأكيده على ضرورة التشجيع على أخذ البعد الثقافي للتنمية بعين الاعتبار. إن أهم ما يميز النموذج التنموي الذي كان سائداً؛ هو نظرته للتنمية بوصفها عملية من النمو الاقتصادي البحث؛ وأدى ذلك إلى سيطرة المداخل الاقتصادية والتكنولوجية على برامج ومشروعات التنمية التي ركزت على الجوانب الاقتصادية والتكنولوجية فقط، وتجاهلت الجوانب الأخرى المرتبطة بالأبعاد الاجتماعية والسياسية والثقافية.

ووضع الثقافة في قلب التنمية يتطلب مجموعة من المبادئ والأسس التي يجب أن تنطلق منها السياسية الثقافية من أهمها: جعل السياسة الثقافية أحدَ العناصر للإستراتيجية الإنمائية. وتشجيع الإبداع والمشاركة في المجالات الثقافية. وتعزيز السياسات والممارسات ابتغاءَ صون واستغلال التراث المادي والمعنوي، المنقول وغير المنقول، ولتشجيع الصناعات الثقافية، وتعزيز التنوع الثقافي واللغوي في مجتمع المعلومات ولصالحه، وتخصيص مزيد من الموارد البشرية والمالية للتنمية الثقافية. وأن تستقيم السياسة على أسس من الحكم الجيد، والمشاركة، والتأكيد على أهمية رأس المال الاجتماعي. عندئذ لن تكون الثقافة في قلب عملية التنمية البشرية فقط، بل ستكون القاطرة التي ستقود هذه التنمية وتعمل على استدامتها، وتجعل هذه التنمية ذات معنىً، وذات مبنىً يتأسس على الهوية الوطنية للمجتمع، ويعمل على تعزيزها.[28]

4- العلاقة بين العمارة الإسلامية والهوية الثقافية والتنمية المستدامة: لقد حضَ اللهُ تعالى الناس على عدم الإسراف مع التأكيد لهم على عدم نفاذ نعمته قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12) ﴾ سورة البقرة. وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ).[29] وقال تعالى: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾.[30]

كذلك وردت أحاديث كثير في عدم الإسراف في استهلاك مصادر الثروة. ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مر بسعد وهو يتوضأ فقال: (ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم، وأن كنت على نهر جار) (سنن أبن ماجه). وقال عليه الصلاة

والسلام:(كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا، في غير إسراف ولا مخيلة).(أحمد والنسائي وابن ماجه ورواه البخاري أيضاً).

وفي وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم التي تدعوا إلى التنمية المستدامة: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فيغرسها) (مسند احمد). وقوله عليه الصلاة والسلام (ما من مسلم غرس غرساً أو زرع زرعاً فتأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) (صحيح مسلم). (ما من رجل يغرس غرساً إلا كتب الله له من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس) (مسند أحمد).[31]

ومن الخصائص المميزة التي تتميز بها الفنون الإسلامية والتي تشكل عاملاً مهماً في وحدتها هذا الاتجاه العظيم نحو استلهام مفاهيم الدين الإسلامي في الأعمال الفنية فبعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية وازداد الثراء والغنى كان على الفنان المسلم أن يبدع أعمالاً فنية من خامات بسيطة رخيصة ليست ثمينة تمشياً مع مفاهيم التقشف والزهد وتحريم الأواني الفضية والذهبية فكان ابتكار الخزف ذي البريق المعدني وهو نوع من الخزف لم يعرف إلا في الفن الإسلامي، وأتاح ذلك صناعة أواني خزفية رخيصة ذات بريق معدني، بديلاً لأواني الذهب والفضة. وتجلى ذلك الاتجاه بأجلى صوره، باستعمال الفنان المسلم لأرخص الخامات كالطين أو الجص أو الخزف، وأثراها بالنقوش والزخرفة، مما جعل هذه المحاريب في قمة الجلال والجمال في الوقت الذي كانت فيه الدولة من الثراء بحيث يمكنها أن تستعمل أنفس المعادن الثمينة لهذا الغرض.

يقول جوستاف لوبون (إن إلقاء نظرة على أثر من أثار العرب في أي عصر متقدم: كجامع أو سراى، أو أي شيء بسيط كدواة، أو خنجر، أو تجليد مصحف، سيبهرنا العمل لتفرده، ولأنه ليس له علاقة بما لدى الأمم الأخرى).

وتميزت فنون العمارة الإسلامية بتفردها، وخصوصياتها فهي تنحاز إلى تجميل الطبيعة، والانسجام معها. وتعتمد فنون العمارة الإسلامية على الرياضيات والهندسية التي كان للعرب باع طويل فيهما، فالخوارزمي هو مبتكر علم الجبر واللوغاريتمات، وتعتمد مواد البناء على الكيمياء، وكان جابر بن حيان من الأفذاذ في هذا المجال. وكان للتقدم الذي بلغه العرب في العلوم الطبيعية والجغرافيا والجيولوجيا وبقية العلوم أثره الواضح في تقدم فنون العمارة.

وكانت مواد البناء لديهم تتغير حسب جيولوجيا المكان، فاستخدموا الطوب في بناء جامع ابن طولون، وبنوا جامع الحاكم بأمر الله من الحجارة، واستخدموا الأسمنت المكون من الجير والرمل والطفلة أو مادة الكاولين في أسبانيا وأماكن أخرى. وأشكال العمارة العربية متنوعة ومتعددة ولكنها ذات طابع خاص يميزها عن غيرها من

فنون العمارة في الحضارات الأخرى.[32] ويمكن اختصار العلاقة بين العمارة الإسلامية والهوية الثقافية والتنمية المستدامة في النقاط التالية:

1- الجانب البيئي: هناك ارتباط وثيق بين البيئة والعمارة الإسلامية فقد استغل الفنان المعماري المسلم الأماكن المرتفعة كالجبال والمنحدرات لبناء القلاع والحصون عليها، كما بنى قلاعاً قريبة من البحار حتى يدافع عن موانئ الدولة الإسلامية، وكان للبيئة أيضاً أثر كبير في استخدام مواد البناء من البيئة المحيطة به مثل الأخشاب والأحجار والطمي.

كما أن هناك العديد من العناصر التي استخدمت في ذلك منها الزخارف النباتية وهي الزخارف المستوحاة من أوراق الأشجار والسيقان بعد أن طورها المعماري المسلم، كما استخدمت أيضاً الزخارف الهندسية مثل الخطوط المستقيمة والمنحنية والمنكسرة، وكذلك الأشكال الهندسية مثل المثلث والمربع والبيضاوي، بالإضافة إلى الزخارف الخطية وهي تشمل الخط العربي بكل أنواعه المختلفة كالفارسي والديواني والثلث وغيرها، مع الإشارة هنا إلى أنه يوجد ارتباط وثيق بين الخط العربي والعقيدة الإسلامية، كما استخدم المعماري المسلم الزخارف المعمارية وهي المستمدة من أشكال معمارية مثل الأعمدة والمآذن والأبواب.[33]

كما اهتم المسلمون بالحفاظ البيئي. ويعرف الحفاظ في الفقه الإسلامي بالإبقاء والاستبقاء، أي الباقي والدائم. والحفاظ البيئي هو الحفاظ الخاص بإبقاء أو استبقاء البيئة على حالها من الصلاح، وعدم استهلاك عناصرها أو إتلافها، لأن الحفاظ البيئي عنصر رئيس في الحفاظ المعماري. وهذا النوع من الحفاظ قديم، نسبه المسعودي إلى عرب الجاهلية، وعزا ترحال وتنقل البدو، واختيار مواطن سكنهم ومواقعها لأسباب تتعلق بالحفاظ على البيئة وعدم استنزاف مواردها، لأن الاستغلال الدائم للبيئة ومواردها يؤثر على خصوبة الأرض، وحاصلاتها الزراعية، وعلى الصحة العامة لقاطنيها، وعلى المنتج الحيواني الذي هو المورد الاقتصادي الرئيس للعمران البدوي.

وبهذا يتضح أن الحفاظ البيئي قبل الإسلام مرتبط بمواقع السكن وبالاقتصاد، أي أنه مرتبط بالحفاظ المعماري وبالتنمية الدائمة. وهذا ما أكده الإسلام، فالقرآن الكريم زاخر بالآيات التي تحث على الحفاظ البيئي وتربطه بالسكن وبالتنمية.[34] قال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.[35]

وهذا ما تؤكده الأحاديث النبوية الشريفة كما في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أحيا أرضاً مواتاً فهي له). وقوله عليه الصلاة والسلام (الإيمان بضع وسبعون باباً فأدناها إماطة الأذى وأرفعها قول لا اله إلا الله).

(الترمذي بسند حسن صحيح). (عرضت على أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط على الطريق)(مسلم).

كما أن الحفاظ البيئي كان من المواضيع التي عالجتها أحكام البنيان، أخص منها الأحكام الخاصة بنفي الضرر، خاصة نفي ضرر الدخان والرائحة، وأحكام نفي الضرر تدخل في صلب الحفاظ المعماري. والحفاظ البيئي كان محور نظريات التصميم البيئي التي وضعها الطبيب أبو زيد البلخي (236-322هـ/850-934م)، وتدخل في صلب الحفاظ المعماري أيضاً، أخص منها: اختيار مواقع مرتفعة للسكن ومكشوفة للهواء والشمس، وغنية بالماء العذب وصالحة للزراعة، وان يتم توجيه المباني للشرق لتمكين الشمس والهواء من دخولها، ومعالجة الفتحات المواجهة لمهب الريح الشتوية، وزيادة سمك الحيطان، وتوسعة مساحة الغرف وزيادة ارتفاعها، وزيادة مساحة الشبابيك لتوفير إضاءة كافية للغرف، لأن الضوء يريح نفسية المستعملين، ورفع المباني على سطح الأرض لتجنب الرطوبة.[36]

2- **الجانب البشري:** نشأت وقامت الفنون الإسلامية من فنون العرب والفرس والروم والبربر وهي فنون الشعوب التي دخلت الإسلام وكونت الدولة الإسلامية الواحدة، وكان ولاة الأقاليم يرسلون الصناع المهرة وأصحاب الحرف والصناعات والفنون المتميزة مع بعض أدواتهم وإنتاجهم إلى عاصمة الخلافة. وفي عاصمة الخلافة انصهرت فنون وصناعات مصر والشام والعراق والجزيرة العربية والمغرب العربي وفارس والصين وغيرها. وهكذا كانت تنتقل الأفكار الجديدة في العمائر وأشكال الزخارف وأساليب التصميم في العمارة وأنماط الخط وغير ذلك في مختلف أنواع الفنون التي كانت تنتقل بسرعة من مكان لآخر في جميع أنحاء العالم الإسلامي.[37]

ولكن الفنان الإسلامي رفض الأشكال التقليدية (للعمارة) وابتدع أساليب فنية جديدة، ولأن الدولة الإسلامية أذابت قوميات كثيرة، فأنها تأثرت بميراثها الحضاري، والمحصلة النهائية فن إسلامي مميز زاهر عبر قرون طويلة ضمن العصور الوسطى حتى الآن. قام به أشخاص لديهم ابتكار وتنوع ودقة ومهارة وإيمان بعملهم وصبر من أجل الوصول إلى أعظم النتائج. والفن الإسلامي هو فن سعادة النفس، والاستمتاع بمباهج الحياة، وما الآنية الخزفية، أو السجادة، أو الكرسي أو المشكاة في أجمل صورها إلا تعبيراً عن ذلك عندما يستمتع بها مستعمـلـها.(وفقاً لـقواعد الدين الإسـلامي وسننه).

وتميزت الفنون والعمارة الإسلامية بوجود وحدة عامة تجمعها بحيث يمكن أن نميز أي قطعة فنية أنتجت في ظل الحضارة الإسلامية في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي، ولعل هذا سر من أسرار التفوق في الحضارة الإسلامية وقدراتها الفائقة على صبغ المنتجات الفنية والتطبيقيـة في جميـع الأقطـار بصبغة واحـة. (وهذا ما نسميه بالهوية الثقافية).[38]

3- الجانب الثقافي: التنمية الثقافية من المنظور الإسلامي، هي ذات أفق واسع، وبُعد إنساني، ومنطلق حضاري، ورؤية شمولية إلى المجتمعات كافة، وليس فحسب إلى مجتمع مخصوص، حتى وإن كان المجتمع الإسلامي، لأن الغاية من التنمية في المقام الأول، هي الارتقاء بالإنسان من حيث هو، بغض النظر عن جميع الاعتبارات، ليكون بانياً للتنمية الشاملة المستدامة التي تحقق الازدهار والأمن والسلام للإنسانية جمعاء.

ولهذه الأهمية القصوى التي تكتسبها التنمية الثقافية، ولهذه الأهداف النبيلة والمقاصد السامية التي تتغيَّاها، فإنّ بناء المجتمع السويّ القويّ القادر، الذي يحقق الإنسان في ظله ذَاتَه ووجودَه، ويؤدّي رسالته في الحياة التي قَيَّضَهُ الله لها، ويبدع وينتج ويبني أسس الحياة الآمنة الكريمة، يتوقف على مدى التنمية الثقافية، وعلى مستواها وحجمها، وعلى مقدار تأثيرها في المجتمع. وعلى هذا الأساس، فإن التنمية الثقافية من المنظور الإسلامي، الذي ينطلق من رصيد الماضي ومن معطيات الواقع، ومن متطلبات المستقبل، تشمل أبعاداً شاسعةً، يندرج تحت كل بُعد منها، جملةٌ من العمليات الثقافية التي يتعيّن القيام بها لبلوغ القدر المطلوب من التنمية في مجالها المحدود.

إنّ مدار الأمر كلِّه في التنمية الثقافية في ضوء المنظور الإسلامي، هو خدمةُ الإنسان من النواحي كافة، لينضج عقلياً ووجدانياً، ويستقيم فكرياً وسلوكياً. فالتنمية الثقافية اليوم، هي حجر الزاوية في بناء المستقبل الثقافي للعالم الإسلامي، وبقدر ما تتضافر الجهود وتُسخر الإمكانات في تحقيق التنمية الثقافية، فإنّ بناء هذا المستقبل سيقوم على أساس راسخ. ولذلك فإنّ تدعيم التعاون بين دول العالم الإسلامي في هذا المجال الحيوي، هو واجبٌ شرعي، وهو أيضاً ضرورة حيوية، لا محيد لنا عن أن نقدرها حقّ قدرها.[39]

فالحضارة الإسلامية كانت ومازالت أكثر الحضارات وعياً بالمنتج الثقافي، سواء كان إسلامياً أو غير إسلامي، فعنيت بالمحافظة على منتجها الثقافي، وعلى منتج غيرها. ونشطت الحضارة الإسلامية في تطبيق الحفاظ على منتجاتها الثقافية، فطبقته قولاً وعملاً. فتم جمع القرآن الكريم والحديث الشريف، وتدوين الشعر الجاهلي، وتوثيق كل ما أنتجته من: أدب، وفن، وعلوم، وفكر، وفلسفة، وعمارة. واللافت للنظر أن الحضارة الإسلامية من أغنى الحضارات إنتاجاً للأدب المعماري الذي شمل جميع مجالات العمارة. أما عملاً فقد طبقه الخليفة ابوبكر الصديق (11-13هـ-632-634م) في وصيته لأسامة بن زيد بن الحارثة، بعد أن أمره على قيادة جيش المسلمين، في غزو بلاد قضاعة سنة (11 هـ- 632م)، التي أرست أسس القانون الدولي في الحفاظ على حياة البشر وممتلكاتهم وانجازاتهم الثقافية. (.... ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا (تقطعوا) نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..).

ومن المعروف أن الحضارة الإسلامية هي التي حفظت الإنجازات الثقافية، الفرعونية، والسومرية، والأشورية، والبابلية، والعربية باليمن، واليونانية، والهندية، والرومانية، والفارسية. والحفاظ الثقافي هو أرقي مستويات الحفاظ قاطبة، وهو سمة من سمات الحضارة الراقية، وكان للحضارة الإسلامية السبق في هذا المجال، مع أنها ابتليت أكثر من مرة بتدمير منجزاتها الثقافية، (من التتار الماغول إلى الاستعمار الحديث).[40]

4- **الحفاظ المعماري:** الحفاظ المعماري هو أبقاء المباني على حالها من الصلاح، وهدفه أبقاء الشخصية البصرية للمباني، وتعزيز استقلاليتها وحضورها في النسيج المعماري (وهو جميع أنواع المباني في أي تجمع بشري، سواء كان مدينة أو قرية ويشمل: المباني السكنية، والتعليمية، والدينية، والحكومية، والخدمية، والتجارية، والسكنية، والترفيهية).

والحفاظ المعماري مرتبط بالتنمية وبالعمارة. كإحياء الأرض الموات، والحمى، والإرفاق، ومؤسستي القضاء والحسبة، ومنظمة أحكام البنيان.[41]

والمدن القديمة ظاهرة حضارية ذات كيان ملموس في جغرافية الأرض، فهي بذلك ظاهرة جغرافية كذلك، ولكنها تختلف عن الظواهر الطبيعية في أنها تحمل طابع الإنسان وحضارته وتتجلى فيها خصائص الحضارات البشرية المختلفة في فترات التاريخ المختلفة، فهي مظهر حضارات الأمم وثقافتها والذي يجوس خلال مدينة من المدن فهو لا يجوس خلال مدينة متميزة عن غيرها من المدن فحسب من حيث حضارتها وثقافتها- بل هو أيضا يتجول في شوارعها أو يرقى قلعتها أو يهبط مرفئها أو يتوسط أحد ميادينها، أو يدخل أحد معابدها وقصورها، وإنما هو بالفعل يتجول في التاريخ، وهو كتاب تاريخ مسطر بالمعرفة والحجارة. فذاتية المدينة وتفردها بمميزات خاصة تحمل طابعها الحضاري والثقافي لا تتجلى في ميادينها وعمائرها أي في مظهرها الداخلي فحسب، بل يبدو أيضا من مظهرها الخارجي أو ما يسمى بخط الأفق Sky-Line.[42]

التوصيات والمقترحات:

1- الاهتمام بالعمارة الإسلامية والهوية الثقافية باعتبارهما رمزاً من رموز الحضارة الإسلامية في ظل ما يواجهه العالم من تقارب للزمان والمكان، وانتشار الثقافة الغربية من خلال العولمة ووسائلها المختلفة.

2- الاهتمام بالتنمية المستدامة من قبل المهندسين، والاستفادة من الموروث الثقافي الإسلامي في هذا الشأن.

3- مراعاة البعد البشري والثقافي والبيئي عند وضع خطط التنمية الخاصة بالعمارة، وتحقيق التنمية المستدامة.

4- إعادة تكوين نوعي للبشر والمؤسسات القائمة في المجتمع، من خلال توسيع دائرة التعليم، والتوعية بالحفاظ البيئي.

5- أجراء المزيد من الندوات والمؤتمرات للتعريف بالعمارة الإسلامية، والهوية الثقافية، والتنمية المستدامة.

المراجع

1- عبد الباقي إبراهيم، العمارة والثقافة، http://www.cpas-egypt.com/Articles/Baki/press/27.html.

2- كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ط1، 1420هـ-2000م، ص3.

3- نايف كريري، التنمية الثقافية.. الاستراتيجية المفقودة، 02 / 09 / 2015، https://www.al-madina.com/article/400252/.

4- خلود حسن عبد اللطيف، تأثير الهوية والثقافة على سلوك الفرد داخل الفراغات المعمارية، رسالة ماجستير، قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، 2014، ص 25.

5- يوسف خليفة غراب، قراءات في الفنون، مطبعة العمرانية، القاهرة، 2005، ص 5.

6- عمارة إسلامية، ويكيبيديا، https://ar.wikipedia.org › wiki.

7- http://www.ar.islamic-sources.com/article.

8- أحمد سويلم، ثقافتنا في مفترق الطرق، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2004، ص17.

9- سالمي رشيد، واقع وأفاق التنمية المستدامة في الجزائر، مداخلة مقدمة للمشاركة في الملتقى العلمي الخامس، جامعة البليدة، كلية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير، 23 - 24 أفريل - 2018، ص4.

10- محمد شفيق، البحث العلمي، دار الحريري، القاهرة، 2003، ص ص 129-132.

11- محمد الجوهري، الثقافة العربية والحضارة الإسلامية، دار الأمين للنشر، القاهرة، 1418هـ -1997، ص ص 135-153.

12- https://www.google.com/search?qsafe=strict&sxsrf=ACYBGNRs3cMzHnfjhc4wOX32i9zv19rULQ:1573763843673&source=lnm

13- راغب السرجاني، فن العمارة في الحضارة الإسلامية، 17/05/2010، https://islamstory.com/ar/article/23524/.

14- https://www.google.com/search?qsafe=strict&sxsrf=ACYBGNRs3cMzHnfjhc4wOX32i9zv19rULQ:1573763843673&source=lnm

15- راغب السرجاني، فن العمارة في الحضارة الإسلامية، 17/05/2010، https:// islamstory.com/ar/artical/23524/.

16- دار الإعلام العربية، القاهرة- 15 أبريل 2011، https://www.albayan.ae/across-the-uae/religion-and-life/2011-04-15-1.1421506.

17- شما بنت محمد بن خالد آل نهيان، التنمية الثقافية وتعزيز الهوية الوطنية، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2013، ص60.

18- شارلت سيمور- سميث، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، موسوعة علم الإنسان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص 731.

19- نجاح قدور، مستقبل الثقافة العربية في ظل العولمة، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، 2005، ص30.

20- خلود حسن عبد اللطيف، مرجع سبق ذكره، ص ص 4- 23.

21- نجاح قدور، مرجع سبق ذكره، ص34.

22- عبد المنصف حسين رشوان، العولمة وآثارها، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، 2006م، ص 97.

23- فاروق عبد الجواد شويقة، بعض الروئ في الأنثروبولوجيا التطبيقية، البيطاش سنتر للنشر، ط1، 2007، ص205.

24- https://prod.kau.edu.sa/waqf/awqafevent/Development.html

25- محمد محمد النجار، في مسألتي التخلف والتنمية، ب.د.ن، 2001، ص137.

26- المرجع السابق، ص139.

27- ثروت إسحاق وآخرون، أنثروبولوجيا التنمية، دار الحريري للطباعة، القاهرة، ب.ت.ن، ص263.

28- شما بنت محمد بن خالد آل نهيان، مرجع سبق ذكره، ص ص8-44.

29- سورة الأنعام، الآية 142.

30- سورة الأعراف، الآية 56.

31- جامعة الملك عبد العزيز، التنمية المستدامة في الوطن العربي، مركز الإنتاج الإعلامي، الإصدار الحادي عشر، 1427هـ، ص3.

32- محمد محمد الجوهري، مرجع سبق ذكره، ص155.

33- دار الإعلام العربية، القاهرة ، مرجع سبق ذكره.

34- بديع العابد، الحفاظ المعماري في الحضارة الإسلامية، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - ، 1431هـ - 2010م، ص15.

35- سورة الأعراف، الآية 85.

36- المرجع السابق، ص17.

37- محمد محمد الجوهري، مرجع سبق ذكره، ص153.

38- عبد العزيز أحمد جودة، تاريخ الفنون، دار فنون للطباعة، القاهرة، ب ت ن، ص125.

39- عبد العزيز بن عثمان التويجري، التنمية الثقافية من منظور إسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، الطبعة الثانية، 1436 هـ 2015 م، ص8.

40- بديع العابد، مرجع سبق ذكره، ص19.

41- المرجع السابق، ص21.

42- محمد السيد غلاب ويسرى عبد الرازق الجوهري، جغرافية الحضر، دار الكتب الجامعية، القاهرة، 1972، ص 195.